

الفصل التاسع

الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة

هذا عنوان لموضوع ثاني مؤتمر استشراقي يُعقد في جامعة « برنستون » الأمريكية ، وكان المؤتمر الأول قد عُقد في نفس الجامعة « برنستون » عام ١٩٤٧ في أعقاب الحرب العالمية الثانية وكان موضوعه : « الشرق الأدنى مجتمعه .. وثقافته » ودُعِيَ إليه أعضاء مسلمون من آسيا وإفريقيا .

أما هذا المؤتمر : « الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة » فقد عُقد عام ١٩٥٣ ، والبحوث التي قُدِّمت في المؤتمرين كلها تدور حول قُطب واحد ، هو تطور الفكر والحضارة الإسلامية في جانب لتلائم روح العصر (!؟) هذا هو الهدف المعلن (البريء) ، أما الأهداف الحقيقية من وراء هذه المؤتمرات التي مولتها أمريكا ، ونظمتها وأشرفت عليها فكانت بعيدة عن الأنظار حتى على الأعضاء المسلمين - الذين اختيروا بعناية خاصة - وذلك سيظهر من آرائهم وبحوثهم التي تقدّموا بها للمؤتمر . حيث تورطوا فيما لا يُحمد عقباه ، ولم يسلم منهم أحد حتى الذين عُرفوا بالغيرة على الإسلام في أوطانهم !؟

وكان اختيار الأعضاء من الجانيين - الأمريكي والإسلامي - يقوم على اعتبارات تخدم الأهداف المرجوة من هذه المؤتمرات . فمثلاً كان الأمريكيون إما قسماً ورجال لاهوت ضليعين في تخصصاتهم ، وإما رجال سياسة سبق لهم العمل ممثلين لبلادهم في بلاد إسلامية ، ولذلك فإن ما كان يدور في جدول

أعمال تلك المؤتمرات وطريقة معالجته مثيراً للريبة ، وكاشف القناع عن حقيقة الأطماع التي عُقدت من أجلها المؤتمرات ، وتُعتقد .

فمثلاً ... الدكتور « ميلر بروز » أستاذ الفقه الإنجيلي في جامعة « ييل » له جهود متواصلة في التبشير ضد الإسلام .

والدكتور « هارولد سميث » أستاذ ونائب ورئيس قسم الديانات بكلية « وويستر » بولاية « أوهايو » الأمريكية . وكان قبل هذا أستاذاً بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، والدكتور « جون كريزويل » الذي كان ملحقاً للعلاقات الثقافية ببيروت .. هؤلاء وأمثالهم كانوا أعضاء في هذا المؤتمر ممثلين صادقين لإدارة الولايات المتحدة العليا .

أما الأعضاء المسلمون فقد اختيروا من ثلاثة طوائف :

١ - الذين تخرجوا من الجامعات الأمريكية ، إما في القاهرة أو في بيروت .

٢ - الذين أتموا دراساتهم العالية في جامعات أمريكا نفسها .

٣ - الذين يشغلون مناصب قيادية في بلادهم كوزراء المعارف أو رؤساء تحرير الصحف ، ولم يُعرف عنهم صلابة في دينهم .

وقلُّ أن يُختار عضو مسلم لا تنطبق عليه الشروط السابقة . وحتى هؤلاء قد بهرهم كرم الضيافة . وسحروهم بريق الحضارة الغربية فراحوا - في لين وخفة - يحاولون التوفيق بين الشريعة الإسلامية والحضارة الغربية ونُظُمها الوضعية . وعلى حساب الإسلام - طبعاً - فقد أحسوا أن الإسلام متهم أمام الحضارة الغربية فراحوا يُزيّفون الإسلام بالباسه ثياباً مستعارة ، وطبعاً هذا هو المطلوب لأمريكا صاحبة « الائتمار » والمنفقة السخية عليه .

وننقل للقارئ الكريم مقتطفات من وقائع المؤتمر ^(١) :

(١) الجدير بالذكر أن مؤسسة فرانكلين نشرت وقائع المؤتمر في كتاب باسم المؤتمر نفسه :

« الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة » .

فالأستاذ الدكتور مصطفى الزرقا ، وهو من هو فى مجال الدعوة والفقه يقدم تنازلات تحت أضواء المؤتمر الباهرة فيقول : « فالصفة الدينية فى الفقه الإسلامى لا تنافى أنه مؤسس على قواعد مدنية بحتة (؟ !) منتجة لفقه متطور كفيلى بوفاء الحاجات العصرية وحل المشكلات النابتة فى الطريق » (ص ١٥٧) .

وفى هذا الكلام عدة أخطاء منها تعميم أن الفقه الإسلامى كله مؤسس على قواعد مدنية بحتة يعنى مثل القوانين الوضعية . وهذا مطلب مرغوب فيه عند المستشرقين .

ومنها : إخضاع الفقه للحاجات العصرية بدلاً من إخضاع الحاجات العصرية لكليات الفقه الإسلامى . وسيأتى أن « العضو » قد ورط نفسه فى مخالفات صارخة إرضاء لمطامع المستشرقين وإن كانت النية حسنة ، فيما نرجح .

ومنها : نسبة التطور للفقه الإسلامى ، وهذه عبارة كالكسكين ذات الحدين فقد يُراد منها تنازل الفقه الإسلامى عن أحكام سابقة بالحل أو المنع ، فيحلل ما مُنع ، ويمنع ما أُحل . وهذا مطلب آخر يسيل له لعاب المستشرقين والمبشرين ومن ورائهم الاستعمار (؟ !) .

ولو أن « العضو » قال : إن الفقه الإسلامى بما فيه من أصول كلية صالح لاستيعاب كل المعاملات المستحدثة ، وإصدار أحكام لها فى إطار الأصول العامة للإباحة والمنع ، لشكر الله والناس له موقفه . ولأثابه الله خيراً ، أما أن ينحدر هذا الانحدار فالأمر جد خطير .

ويقول عن الحدود الإسلامية : « فإذا لوحظ أن تطبيق بعض عقوبات الحدود الأربعة ^(١) أصبح متعذراً فى أى زمان أو مكان فمن الممكن تطبيق عقوبة أخرى ولا يوجب هذا ترك الإسلام » (؟ !) (ص ١٥٨) .

وهذه محاباة ظاهرة لفكر المستشرقين ، وتصديق لدعاواهم ودعاوى المبشرين الذين يطعنون فى التشريع العقابى الإسلامى ، ويرون فى قطع يد السارق ،

(١) يقصد عقوبات : الزنا - السرقة - شرب الخمر - الردة .

وجلد الزانى (غير المحصن) وجلد شارب الخمر ، يرون فى ذلك قسوة ووحشية . فجاء كلام الدكتور الزرقا محاولة « طريفة » لإسقاط الحدود ، و « سخيطة » فى نفس الوقت .

وهو - كذلك - فى ذكره للحدود الإسلامية اقتصر على « الجلد كعقوبة للزانى ، وأهمل « الرجم » فلم يكن أميناً فى العرض ، ولا حريصاً على « شخصية » الإسلام .

وخطأ فاحش وقع فيه الدكتور الزرقا وهو بصدد الحديث عن نشاط البنوك فى الغرب ، ومنها تقاضيتها الفائدة الربوية على القروض ...

فماذا قال الدكتور الزرقا يا ترى ؟ اسمع :

« إن هذه المشكلة : يمكن حلها فى مبادئ الشريعة الإسلامية بطرق عديدة (منها) الرجوع إلى تحديد الحالة الربوية التى كان عليها العرب ، وجاءت الشريعة بمنعها . إذ كان المرابون يتحكمون كما يشاءون فى الفقير المحتاج إلى القرض الإستهلاكى لا « القرض » الاستثمارى » (؟ !) (ص ١٥٩) .

وهكذا مضى الدكتور الزرقا يتودد للغرب ليرضى عن الإسلام وعلى حساب الإسلام - وحده - وكان بوسعهم أن يتحدث عن مزايا الاقتصاد الإسلامى ، ومنها حظر الربا ، ويبين المضار التى تترتب على الربا الفردى والجماعى . وكان بوسعهم أن يقول للقوم : إن تحريم الربا ليس وفقاً على الإسلام . فقد حرّمته اليهودية وحرّمته المسيحية قبل الإسلام - وإن لم يسلم التحريم فى اليهودية من تحريف - وأن كثيراً من زعماء الفكر الغربى الإصلاحى قد ذموا الربا مثل « مارتين لوثر » الذى وصف فوائد الربا بالسرقات المقتنعة .

*

وإذا ودعنا الدكتور الزرقا وكانت كلماته فى المؤتمر « معاول » حطّمت بها حصون الفقه والتشريع لإحداث ثغرات ينفذ منها أعداء الإسلام للانتقاض على الإسلام نفسه . فإننا نقف أمام « قذائف هدم » أخرى . ولكن فى هذه المرة مصوِّبة ضد « العقيدة الإسلامية » فقد كان من أعضاء المؤتمر الدكتور فضل

الرحمن الهندي . فقد اشترك ببحث عن « الفلسفة الإسلامية الحديثة » وشرط الإسلام شطرين .

أحدهما الإسلام في عصر النبي ﷺ وسماه : « الإسلام الكلاسيكي » ثم كان الشرط الثاني عنده هو « الإسلام في العصر الحديث » وقال :

إن الإسلام الحديث متأثر بالمذاهب الغربية ، وهو الذي قامت من أجله في الهند « جامعة عليكره » التي أنشأها السيد أحمد خان وسماها عند إنشائها : « الكلية المحمدية الإنجليزية » (؟ !) .

ويدعوا : الدكتور فضل الرحمن الهندي - صراحة - إلى إعادة النظر في العقائد الإسلامية ، لأن المعرفة تسير - دائماً - إلى الإمام ولن تتوقف . يقول الدكتور فضل :

« إن العقل الإنساني لا يقف قط ، والمعرفة دائماً تسير إلى الأمام ، وكل تغيير كبير في رأى الإنسان عن العالم يستلزم ترجمة جديدة وإعادة تغيير للحقائق الأساسية للعقيدة » (ص ٩١) .

وهذا خطأ محض ؛ لأن العقيدة خبر صادق يُتلقى عن الوحي - هذا في الإسلام - ويقام على صدقها قواطع الأدلة . وليست العقيدة - وبخاصة الإسلامية - مجالاً للنظر والتعديل . ولكن المنافسة في إرضاء - الخصوم - دعت الدكتور فضل الرحمن الهندي إلى هذا الحد من الاستخفاف بالإسلام وأصوله . ويبدو أن الأدوار كانت قد وُزعت بعناية . فذاك للإطاحة بالشرعية ، وهذا للإطاحة بالعقيدة . ، وهلم جراً يا ترى .

*

وتعال معى إلى نموذج آخر شديد الخطورة . فقد كان من أعضاء المؤتمر المسلمين الدكتور آصف على فيظى الإسماعيلي المذهب (أحد مذاهب الشيعة) وكان سفيراً لبلاده « الهند » في مصر . قدم الفيظى هذا بحثاً للمؤتمر عنوانه : « القانون الإسلامى واللاهوت فى الهند .. مقترحات لاتجاه جديد » يدور هذا البحث حول النظر فى الإسلام ومحاولة إخضاعه لحضارة الغرب المعاصرة ، وللфكر اليهودى وجميع المعارف العصرية (؟ !) .

على أن يتم ذلك بالتدرج لا طفرة (١٤) ولا نريد أن نطيل فى الحديث عن بحثه . ولكننا ننقل منه فقرات وجيزة دالة على انسياق الرجل وراء خصوم الإسلام ، ومنهم المستشرقون . يقول الفيظى :

« ينبغي أن يُعاد النظر فى اللاهوت الإسلامى من جميع نواحيه (١٤) وينبغى أن تستخدم الفلسفة الحديثة ، والميتافيزيقا - يعنى البحث العقلى ، والأخلاق وعلم النفس والمنطق - فى صياغة القواعد الأساسية وإعادة تقريرها » (١٤) .
(ص ٤١١)

إنها دعوة إلى « ذبح الإسلام » و « تقطيعه أشلاء » فى أحد مجازر المستشرقين ، ويتدبير من أمريكا الداعية لعقد المؤتمر ، والمختارة لأعضائه والمنفقة عليه بسخاء فى أرضها وفى إحدى جامعاتها وعلى بد عميل من عملاتها .

ثم يقول الفيظى : « فالتيار المعاصر من الفكر الأوروبى ، والتقدم العظيم الذى حققه المفكرون البروتستانت (١١٤) منذ أيام لوثر ... وتأملات المفكرين اليهود وغيرهم فى العالم الحديث يجب أن تستخدم فى بصيرة لتقوى وتجدد اللاهوتية الإسلامية » (ص ٤١١) .

أشهد أن هذا الرجل حينما قال هذا القول أنه لم يكن يحقق من الإسلام فى نفسه شيئاً سوى النسبة الظاهرية إلى الإسلام والمسلمين ، وكيف يكون مسلماً حقاً وهو يدعو إلى الإمساك بتلابيب الإسلام وتقديمه إلى النصارى واليهود ليطوروه؟! أهذا كلام يصدر من عاقل؟ كلا والله . أهذا كلام يصدر من مسلم صادق فى إسلامه؟! كلا والله ، ويقينى أن اتصالات « ما » جرت بين منظمى المؤتمر وبين هؤلاء الأعضاء المارقين ، وكُلّف كل عضو بما يناسب أهواءه وصلته بالإسلام . فجاءوا إلى المؤتمر وقالوا منكرأ من القول وزوراً .

*

ثم جاء دور أندونسيا . وقد مثلها فى المؤتمر (إياه) الدكتور محمد كفراوى ، وكان يشغل منصب السكرتير العام لوزارة الشؤون الدينية فى بلده ، وكان نصيب هذا الرجل من النفاق لمنظمى المؤتمر له وزن وتقدير لدى خصوم الإسلام ... وننقل من كلامه فقرتين كذلك ليشارك معنا القارىء فى تصور الهوة التى تردى فيها :

قال : « إن إنشاء وزارة للشئون الدينية فى أندونيسيا ، إنما جاء توسطاً بين النظرية العلمانية المسيحية التى تفصل الدولة عن الكنيسة ، والنظرية الإسلامية التى توحد بينهما » (؟) (ص ٣٧٩) .

ومعنى هذا أن الدكتور كفراوى يقول لأمریکا ومنظمى مؤتمرها : إننا (أندونيسيا) صرنا دولة نصف مسيحية ونصف إسلامية بل إننا خطونا خطوة رائدة للمصالحة بين المسيحية والإسلام (؟) .

وقال الكفراوى : « إن حكومته تعين المساجد والكنائس على قدم المساواة (؟) وتحمى بقوة القانون النشاط التبشيري الأجنبي منه والأندونيسى » (؟) (ص ٣٧٩) .

أى أن أندونيسيا فوق مساواتها بين المسجد والكنيسة توفر كل أسباب الأمن والحرية والراحة للمبشرين الذين يُنصرون المسلمين فى أندونيسيا . سواء أكان المبشرين محليين أو كانوا عالميين قد وفدوا إلى أندونيسيا من الخارج . وهذا - بالطبع - يُسعد أمريكا وغيرها من الدول الصليبية ويُسعد السادة المستشرقين ؛ لأنه نجاح لهم وأى نجاح ؟!

هذا ما تيسر نقله من وقائع المؤتمر . ولك - الآن - أن تسأل :

إذا كان هذا هو ما قاله المسلمون المشتركون فى المؤتمر ، وفيه كفر صراح فماذا قال المستشرقون يا ترى ؟

ولنا أن نجيب : إنهم اكتفوا بعبارات التشكيك « المغطى » ورسم الخطط ولم يعوزهم السادة المسلمون إلى شئ يقولونه . فقد عبروا عن آمال الصليبيين فى وضوح . ولا فلك ونحن ننهى الحديث عن هذا المؤتمر إلا أن نقول :

أولاً : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً » (١) .

ثانياً : « ربنا : لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا » .

* * *

(١) الكهف : ٥